المشترك الإنسانى: رؤية إسلامية

لا جـدال فى أن العـالم الغربى حقق طفرة كبيرة فى سـباق المعرفة وعلوم التقدم، وأحرز منجزات مادية هائلة على طريق السـبق الصناعى والعلمـى والتكنولوجى، وهو بذلك ملك ناصية القوة المادية فى جوانبها المتعددة وأخصها أسلحة الدمار الشامل، والفضاء والمعلوماتية، ولا يزال السـباق المادى على أشـده ينطلق بسـرعة فائقة يجرف فى طريقه كل شـىء إلى حد أنه يدمر من يعوقه أو يوقفه من أجل المزيد من السـيطرة والتغلب، والوفرة والانتصار.

لكن هذا الاكتسـاح المادى كان على حسـاب الإنسـان نفسه، قيمه الروحيـة، وسمـوه المعنوى، وأخلاقـه الحضارية، يتجلى فى حشـد هـذا العالم المتقدم كل قواه لتعظيم تفوقه فى مجال المادة والمحسـوس، وانطلقت أصـوات المفكريـن وأقلامهم للتنظير لهـذا الاتجاه،وتكريس الوحشية والقسوة المادية إلى حدودها القصوى، وأنانيتها المفرطة.

وكان من الطبيعى فى أجواء كهذه أن ينحسـر الإيمان، وأن تتوارى الفكرة الصحيحة عن الإله الحق الذى جاء به الإسلام والأديان السماوية فأصبح الواقع فى الغرب كما يقوله هوفمان[1] الدنيا محور الحياة عديمة الإله، وظهر فيورباخ، وماركس، ونيتشـه، وفرويد، رسـل اللاأدريه، إن لم يكن الإلحاد، وسـاد المذهب الكمى الذى لا يعترف إلا بما يمكن قياسه بالحواس، بينما أصبح الإيمان بإله مجرد احتمال يمكن التسامح

(١) الإسلام كبديل، تعريب عادل المعلم، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ١٩، ٢٠.

فى قبوله طبقا لسوينبرن، ولكن لا يجوز التفكير أو الاقتراب من القضايا الفكرية العليا، ويعزى الفضل فى ذلك لأعمال مثل سحر خضوع الموت (فرويد) إن كان فى ذلك فضل.

ويمضى قطار أوربا الزاحف على هذا الطريق ليكرس تراجع الإيمان، يزرى بالروحانيات، ويقصى ذلك التسامى المعنوى الذى يتغلغل فى جنبات الإنسان، وربما يلغيه، ومن ثم إذا كان صحيحا أن العالم الغربى حقق حضارة مادية زاهرة وقدرة علمية ومعلوماتية فائقة، فإنه فى الوقت ذاته يعانى بامتياز من إفلاس أخلاقى، وفقر روحانى، وتراجع إنسانى يوشك أن يحدث كارثة يتعذر تقدير مداها.

هذا الواقع المعيش فى الغرب، صار من معالم الحضارة الغربية، مرده أن العقل والحداثة بديلة عن الإله والإيمان، وهو اختلاف أيدلوجى صارخ، يتصادم مع أصول القرآن وحقائق الإيمان: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣].

ومنبع الإشكالية فى علاقات العالم الغربى مع العالم الإسلامى، تكمن فى أن المسلم لا يصح إسلامه إلا بإيمانه الكامل بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، ويبقى هذا الاعتقاد الشامل لدى المسلم متجذرا لا ينفك عن كيانه وإن ضعف لسبب أو لآخر، وهو ما لايرضى عنه العالم الغربى، بل ينظر إليه باعتباره أصولية إسلامية ورده عقلية وحداثية لا تتفق مع أيدولوجيته المعاصرة.

فى ضوء ذلك، يرى العديد من المسلمين كما يقول فولر، وليس[1] أن المشكلة المحورية بشأن الغرب هى – تحديدا – أنه نأى عن مثله العليا الدينية والأخلاقية التى يتفق كثير منها مع الإسلام. وبدلا من ذلك فإن أهل الغرب، الذين اعتبروا أنفسهم يوما أنهم مسيحيون أولا وأساسا قد ابتدعوا ثقافة علمانية حديثة، هى الآن فى عيون المسلمين ثقافة مريبة، بعد أن افتقد فى ظاهر الأمر المبادئ الأساسية للمسيحية ونحت الأخلاق فى مجال السلوك الشخصى. ويمكن القول تحديدا إن تصدير هذه اللاأخلاقية الغربية، كما تبدو فى ظاهرها، هو قوام الخط الثقافى المتوهم والذى يتهدد المبادئ الأساسية التقليدية للمجتمع الإسلامى.

إن الخطر الذى يستشعره المسلمون من جراء ذلك يكمن فى المساعى الغربية المتواصلة لتشويه الإسلام وطمس معالمه، وقهر المسلمين حتى فى داخل أوطانهم وحصارهم بالمنجزات الغربية ثقافيا، واقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، وعسكريا، اعتمادا على ما يمتلكه العالم الغربى من قدرات وآليات وأسلحة لفرض أيدولوجيته ونظامه على عالمهم، فى ظل الضعف والتخلف الراهن الذى يعيشون فيه.

إن نظرة الريبة والالتباس، وحتى العداء المهيمنة على العلاقة بين المسلمين والغربيين، ينبغى أن تتضافر الجهود الجادة لدى الطرفين لرأب الصدع وإزالة سوء الفهم، وتصحيح الصور المغلوطة على الجانبين، بهدف الوصول إلى تعايش سلمى إنسانى.

وفى هذا السياق تأتى أهمية عرض أهم معالم الإنسانية فى الإسلام التى جاء بها الإسلام الجامع الأديان كدين عالمى اختتم به الخالق عز

(١) الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة، ترجمة شوقى جلال، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص ١٨، ١٩.

وجل الرسالات السماوية واكتملت به حلقة الديانات الإبراهيمية، ومن ثم يبقى الإسلام نهاية المطاف لهذه الأديان، حرص منذ البداية على الوفاق لا الاختلاف، وعلى إزالة سوء الفهم ونبذ الكراهية بين أتباع الأديان لا يقيم خصومة مع أحد ولايكره أحدا على اعتناق عقيدته، الأمر الذى يجعل الإسلام دين يجمع بين البشر لا يقيم حواجز بينهم، يتكامل مع غيره من الأديان، ويقارب بين أتباعها.

ونعرض فيما يلى آلية للتقريب وتبديد الشكوك والشبهات:

حتمية الحوار لتصحيح المفاهيم المغلوطة بين أتباع الأديان والثقافات

يأتى البحث عن الحوار الخلاق فى إطار الجهود الجادة التى تضطلع بها المؤسسات المسئولة المعنية بقضايا الأمة المهمومة بالدين والوطن بتفعيل الحوارات بين أتباع الأديان والثقافات من أجل خلق فهم أفضل وتصحيحا للمفاهيم المغلوطة المتعلقة بالقضايا ذات الاهتمام المشترك فى الدين والحياة، بغرض تجنب الصدام والصراع الذى يكتوى به عالمنا اليوم وتهيئة الظروف لقيام عالم أكثر تسامحا، وصولا إلى تصحيح المفاهيم الحقيقية عن الإسلام والأديان وإزالة أسباب سوء الفهم والصراع الذى طالما عانى منه البشر، وتسبب فى نشوب الصراعات والحروب، دون شروط مسبقة أو انحياز للاعتقاد السديد ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٤].

فمازال الاعتقاد السائد بين الغربيين أن الإسلام دين استعمارى توسعى انتشر بقوة السيف منذ أن وطأ المسلمون أرض الأندلس، وحاصر الأتراك أسوار فيينا، وشاع فى الأوساط العالمية أن المسلمين إرهابيون وأصوليون، ويرفضون الآخر، وأن المسلمين يعبدون محمدا، وعلى الجانب الآخر فإن

هناك صورا مغلوطة لدى بعض المسلمين عن المسيحية مثل الاعتقاد لدى البعض بأنه يجب محاربة المسيحيين لمجرد كونهم مسيحيين، وأنهم بهذا الوصف أعداء للمسلمين، وأنه يجب الجهاد لمجرد هذه المخالفة فى الدين إذ يحق لنا محاربتهم ومقاتلتهم بحسبانهم من الكفار، مع أن علة القتال فى الإسلام الحرابة بسبب مهاجمتهم لنا وغزوهم لبلادنا، وليس لمجرد المخالفة فى الدين. كما أن صورة أتباع كل دين لدى الآخر هى جد مشوهة وبغيضة، منطلقها العداوة وسوء الفهم، وهى صور مجسدة فى نظرة الغرب للإسلام.

مرتكزات منظومة المشترك الإنسانى

أسس الإسلام منظومته العقدية والتشريعية والأخلاقية والحضارية، على مرتكزات إيمانية تشكل مجتمع المؤمنين بما يرسى المعانى الإنسانية التى ينبغى أن تهيمن على العلاقات بين البشر على اختلاف انتماءاتهم ومعتقداتهم بما يبقى على هذه المعانى الإنسانية أيا كانت الصراعات ومهما تعددت الرؤى والأفكار، ونستجلى بعض جوانبها، وهى جديرة بإبرازها فى ظل المسخ المشوه الذى تتعرض له بفعل النظرة الغربية المنحازة ضد الإسلام والمسلمين، وطرح مفاهيم ورؤى جديدة لحضارة الغرب الحديثة.

١- البشر خلق الله يتمتعون بالإنسانية، وهم شركاء فى الكون باعتبارهم خلفاء عن الله فيه

لعل نقطة البداية فى المفهوم الإسلامى عن الخلق أن البشر جميعا عباد الله، وأنهم يتمتعون بوصف الإنسانية، وهم شركاء فى الكون خلفاء

عــن الله فى الأرض، بغــض النظر عن اختلافهم فى العقائد والأجناس والألــوان، وهــم يتعاونون فى إعمارهــا وتنميتها، وأنــه مهما كان هذا الاختلاف ودرجته، فإن الكل خلق الله إليه مصيرهم وهو الحاكم بينهم، يفصــل فى أمر اختلافهم، لبيان ما كانــوا عليه من صواب أو خطأ فى هذه الحياة، ومن ثم لا سبيل لاستعلاء فريق على آخر. ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [سـورة الشورى: الآية ١٠].

وهذا إقرار بحق الاختلاف واعتراف بثقافة التعدد، وما يترتب عليه القول بإن للجميع حقوقا وعليهم واجبات وبأن، لهم خصوصيات ينبغى احترامهــا، وعدم فرض ثقافة أخرى عليهــم أو إبداء أى اعتراض على تلك الخصوصيات[1].

٢- اعتراف الإسـلام بالأديان الإبراهيميـة ونداؤه العالمى للاجتماع على كلمة سواء

إن الإســلام هو الدين الذى يقبل الآخر، وتتســع آفاقه للتعايش مع المعتقدات والأديان الأخرى، فهو يعترف بالأديان الإبراهيمية المسيحية واليهودية، وأنها أديان إلهية تنبع من مشكاة واحدة، وهى والإسلام من عند الله، وهو لذلك يطلق نداءه الخالد بالانضواء تحت رحاب الإيمان والالتقاء على كلمة سواء، وسلوك طريق التعايش بديلا عن الصدام والرفض والصراع، وهــا هو القرآن يقرر ذلك بجلاء فى دعوته إلى أتباع الأديان الســماوية:

(١) سعيد إسماعيل على، الإسلام والغرب، تعايش أم صراع؟ عالم الكتب، ٢٠٠٧م، ص ٢٩٣.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤].

كيف يمكن الاستجابة لهذا النداء الإلهى الذى يلتقى فيه المسلم مع اليهودى والمسيحى على الإله الحق، بينما عبدت أوربا فى القرن العشرين – قرن العلم والتكنولوجيا – أصنامًا جديدة: القوة، الجمال، الشعبية، الجنس[1].

٣ - رحابة المنظومة الإسلامية لقبول الأديان غير السماوية

إن مساحة قبول الآخر، ودائرة التعددية والاختلاف بين البشر ليست مغلقة فى نظر الإسلام ولا قاصرة على الأديان السماوية وحدها، وإنما تمتد لتشمل عموم الناس أتباع الديانات والمعتقدات الأخرى، حتى تلك المغايرة للإسلام والأديان الإبراهيمية، وأن أمرها مفوض إلى الله، وأتباعها مقبولون عنده لهم الأجر والثواب، وقد يكونون من جماعة المؤمنين الذين يكتسبون بسلوكهم وصف العمل الصالح المستحقين لرضا الله والفوز بنعيمه فى ميزان القرآن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٢].

وفى موضع آخر يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة الحج: الآية ١٧].

(١) مراد هوفمان، الإسلم كبديل، مرجع سابق، ص ٢٠.

وبذلك يكون مآل الاختلاف فى العقائد، وتقرير المقبول منها وغير المقبول مرجعه إلى الله خالق الجميع، المعبود بحق دون سواه، وأن الشراكة الإنسانية تقتضى التواصل والتحاور معهم باعتبارهم يشكلون نصف البشرية، وهذا ظاهر فى توجيه الخطاب إلى الناس، بقوله تعالى فى غير موضع: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١].

ودلالته أنه لا يجوز احتكار الحقيقة، ووصم المخالف باستحقاق النار والتحدث نيابة عن الله عز وجل فى أمور من أخص خصوصياته تتعلق بأمر الحساب والفصل بين المتخالفين، إذ إن كل ادعاء يفتئت على الحق الإلهى يمثل خروجا عن المقررات الإسلامية، من شأنه أن يخل بحقائق الدين ومصلحة النوع الإنسانى.

٤- المؤمن بالإسلام ليس محمديا وإنما هو مسلم يعبد الله رب العالمين

إن الإيمان فى الإسلام، والانتماء إليه إنما يكون لله تعالى، وأن من يعتنق هذا الدين ليس له إلا انتماء واحد نابع من هوية الإسلام، وهو يسمى مسلمًا لأنه أسلم وجهه لله، وهو يعبد الله ولا رب له سواه، وأن المسلمين لا يسمون محمديون، وإنما هم عباد الله، والقرآن صريح فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨].

والرسول ﷺ هو القائل: «أنا عبد الله ورسوله..وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». والقرآن يتوج ذلك بوصف الرسول ﷺ بالنبوة والبشرية بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠]. وقوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤]، وكلها دلائل ناطقة على أن محمدا – صلوات الله عليه – بشر اصطفاه الله للرسالة.

٥- تكامل إيمان المسلم فهو لا يكون مسلما إلا بالإيمان بسائر الرسل والكتب والأديان السماوية

إن المسلم يؤمن بالله خالق الكون الواحد الديان، وإيمانه لا يكتمل ولا يكون مقبولا إلا بالإيمان بكافة الرسل وبالكتب السماوية والتوراة والإنجيل والزبور والقرآن والملائكة، وأنه لا يفرق بين أحد من رسله، كما يؤمن بالحساب وبالقضاء والقدر، ويستشعر المؤمن فى كل مشاهداته اليومية وجود الله من خلال كتابه المسطور، وعبر كونه المنظور، وتمثل فروض العبادة من الصلاة والزكاة والصوم والحج حقوقا لله تعالى وواجبات على الإنسان الوفاء بها، لأنها أوامر إلهية، تستوجب طاعتها، على أساس أنها تبين صحيح الدين وتجلى حقيقة الإيمان. وهو ما يفتح مجالًا للتآخى الإيمانى، والوفاق على المبادئ العامة للدين، وهو أعظم مظهر للتعايش والتسامح بين أتباع الأديان، من منطلق أنها نابعة من كون الجميع خلفاء عن الله تعالى، وهو ما يقيم رابطة عامة بينهم، ويجعل بعضهم سندا للبعض الآخر.

٦- الناس متساوون فى الإنسانية، ومكرمون فى الإسلام

الناس سواسية فى الإسلام فى أصل الخلق، فهم أولاد لأب وأم واحد، لا فرق فى ذلك بين فرد وفرد، وأمة وأمة، وجنس وجنس،

وديـــن ودين، بقولـــه تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: الآية ١].

يؤكد هذه الحقيقة قول الرسول – صلوات الله عليه – «الناس سواسية كأســنان المشط»، وقد أشار الرســول ﷺ فى فتح مكة إلى ذلك بقوله: ألا إن كل مأثــرة أو دم أو مــال يدعى فهو تحت قدمى هاتين، يا معشــر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تــراب، وتلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣].

وبموجــب ذلــك فإن التقــارب والتآلف بين الناس يكون من أســس الاجتمــاع فى الإســلام، وأنه لا تفرقة ولا تمايز بينهــم فى أن كلا من المجتمعين أعضاء وجزء رئيسى فى هذا المكون الاجتماعى.

ويتبع هذا ويتمخض عنه، تقرير الكرامة لكل إنسان بصفته الإنسانية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠].

وعلى هدى هذا، فإن دعــاوى حرمان البعض من حقوقه الطبيعية، وهــى حقوق الإنســان يكون غــير جائز، ويُعــد انتهاكا لمبدأ المســاواة والكرامة، وهو حجر الزاوية فى بنية الاجتماع البشرى فى كل العصور.

٧ - ثبوت التكريم والاحترام للأدمى حال الموت كحال الحياة

إن تكريــم الفرد فى الإســلام مقرر، فوجوده محــل احترام فى كل الأحوال، يتجاوز كل دعاوى العنصرية والعصبية واللون..إلخ.

ولا امتياز فى ذلك للمسلم على غير المسلم فهم فى حق التكريم سواء، وربمـا تبرز أهمية حرمة الآدمى حالة الموت، خاصة فى القتل والتنكيل وهـو ما يحدث فى الحروب والصراعـات، والأحقاد الكامنة فى بعض النفوس، وتعانى منه البشرية فى الوقت الراهن.

ويوجه الإسـلام إلى رفض أى مسلك فى تجريد الإنسان من التكريم، وانتهـاك حرمته بدعوى أنه غير مسـلم، بل إنـه يعتبر المحافظة على هذه الحرمة حكما قطعيا ثابتا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سـورة الإسراء: الآية ٧٠]. مما يجعل حق التكريم وحماية هذا الحق، ينظر إليه كحق خالص لغير المسـلم بمقتضى إنسانيته. وهو ما روى فى موقف الرسول ﷺ عندما مرت عليه جنازة اليهودى، فنهض لها واقفا فقال له بعض الصحابة: إنها ليهودى، فقال: «أليست نفسا».

ودلالة هذا الصنيع النبوى تتجلى فى المسلك الذى يدل على التوقير للنفس البشرية مجردة عن أى اعتبار آخر، وأن هذا حق ثابت لكل نفس فى كل حال، كما يعبر عن استنكار وتخطئة لمن اعتقد أو فهم غير ذلك.

٨- التعايش بين المسـلمين وغير المسـلمين بموجب التعارف الأممى والبشرى

إن البشـر إنما خلقهم الله ليتعايشـوا ويتعارفـوا، وليس ليتصارعوا ويتقاتلـوا، لكن الحاصل أنه عندما يحتدم الخلاف ينكر كل فريق على الآخر الحق فى الحياة أو الحرية أو يحتكر الحقيقة أو يستأثر بخيرات وموارد الرزق وأسـباب الحياة ويحرم الآخرين منها، فهذا انحراف عن

منهج الله ومعاندة لنواميس الكون لا يستقيم به وجود، ولا يحقق به الخلافة التى أرادها الله وخلق من أجلها الإنسان، وهيأ له الكون وسخر له هذا الوجود وإنما يجعل الاجتماع الإنسانى محكوما بشريعة الغاب. وعلى كل إنسان أن يدرك هذه الحقيقة المقررة أن البشر وجدوا ليتعايشوا، وهذه الآية تبرز دستور التعايش الإسلامى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣].

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢].

وقد وجد هذا النموذج فى الالتقاء بين المسلمين والأسبان فى الأندلس وكان وراء التعايش والتكافل بين الثقافات الإسلامية والمسيحية فى أسبانيا[1]، الذى استمر فترة غير قصيرة من الزمان.

٩ - العقل هو مصدر القوة المفكرة، ومنبع الملكة المحصلة للعلم

العقل فى الإسلام يتبوأ منزلة ملحوظة فى أصول الاعتقاد والتشريع، وهو سبيل التقدم، ومصدر العلم، وحفاوة الإسلام بالعقل والدعوة إلى التفكير والنظر لا يعدله دين آخر، إيمانا بأن العقل هو الجوهرة النفسية فى الإنسان، ومظهر تميزه وآية فخاره، والمستقرئ للنصوص يواجه بكم وافر من الآيات الحاثة على التفكر والنظر والاعتبار: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣]. ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢].

(١) حسن حنفى، الثقافات صراع أم حوار، المؤتمر الدولى حول الحضارات أم حوار الثقافات، منظمة تضامن الشعوب الإفريقية والإسلامية، مارس ١٩٩٧م، ص ٥٤ – ٥٩.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩٠]. ومن يتأمل مغزى هذه الآيات وهى تبلغ العشرات، ويدرك هذه المنزلة الرفيعة للعقل بوضوح كأصل من أصول التفكير فى الإسلام، وأن دعوة الإسلام فى هذا السياق هى انقلاب فكرى لا شبيه له قصد به تحرير العقل من الأغلال وتوظيفه فى معرفة الله والاستدلال به على المنهج الإلهـــى الصحيح، والارتقاء بهذا الكون وعمران الأرض.

١٠ - العقل أداة التكليف فى الخطاب الإسلامى

وكان مـــن الطبيعـــى إزاء ذلك أن يكون العقـــل هو أداة التكليف فى الخطاب الإســـلامى مناط المسئولية، وأن من لا عقل له لا تكليف عليه، وربما يفاجأ البعض ببعض الأحاديث التى تقرن العقل بالدين وتعتبرهما صنوين، وهى وإن كانت ضعيفة إلا أن معناها يتوافق مع الدلالات القرآنية فى هذا المجال مثل حديث: «الدين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له». فى الوقت الذى ذكرت فيه دائرة معارف القرن التاســـع عشر على لسان بعض قادة الأديان فى الغرب: «اطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى».

وهو كلام يصطدم مع جوهر تميز الإنسان وأخص خصائصه وآية فخره بإعمـــال ملكة العقل المفكر لبلوغ كل إنجاز وبدونه لم يتمكن من بلوغ ما حققه من تقدم علمـــى وتطور تكنولوجى فى العصر الحديث، فضلا عن أن التهوين من دور العقل يتناقض مع أصل من أصول الإسلام، لا يجوز إهداره، يقول ابن رشد[1]: ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشـــرع، إن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل

(١) فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ١٩٩٥م، ص ٣٦.

العربى، وهذه القضية لا يشك فيها مسلم. وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول أساس ذلك أن من المقرر فى أصول هذا الدين: النظر العقلى لتحصيل الإيمان، فإن أول أساس بنى عليه الإسلام كما يقول: محمد عبده هو النظر العقلى، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه[1].

وشاهد ذلك نصوص القرآن، فإنها مليئة بإثارة العقل، وهمة القلب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٤]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٤]. وأولى النهى هم اصحاب العقول السديدة، فهم أهل الاعتبار. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٠].

وهو ينعى على صنيع هؤلاء الناس الذين عطلوا عقولهم، وساروا على نهج الآباء، وتقليدهم، معرضين عن استخدام العقل وسيلة رشدهم، ومصدر هدايتهم.

ومما يقطع بحقيقة دور العقل وقيمته فى الإيمان والتكليف، ما تقرر فى الشرع، أنه لا تكليف بغير عقل، ولا مسئولية دينية أو دنيوية عمن فقده أو نزل به آفة، وفى الحديث: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، عن الصبى حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق».

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مكتبة صبيح، ص ٥١.

وهو دليل ناهض على علو مكانته فى نظر الإسلام، إذ ما خلق الله شيئا فى الإنسان أكرم من العقل.

والفرق بين مكانة العقل فى الإسلام، ودوره فى الفكر الأوربى الحديث، أن العقل الإسلامى هو المنضبط بحدود الشرع، وأنه العقل الرشيد لا العقل المنفلت، لذلك ينبغى عدم تغييبه وتفويت ملكته الواعية بالسكر أو غيره، إذ يعاقب على ذلك فى أحكام الشرع.

هذه النقطة يختلف فيها الإسلام عن المنظور الغربى الذى يعلى العقل ويرفعه إلى مصاف الإله، ولا يحده بحدود أو يقيده بضوابط فهو صاحب سلطان مطلق، كما أن المباح والمشاهد كثرة وقوع إنسان المدنية الحديثة فى الإغراق فى السكر، وتعاطى المخدرات، وهو مسلك يؤدى إلى تعطيل هذه الجوهرة النفيسة وابتذال ما يجب صيانته والمحافظة عليه.

١١ - إنسان الإسلام هو المحب لإخوانه فى الإيمان بالله وفى المشترك الإنسانى، يبر بهم ويعدل معهم

يربى الإسلام الإنسان على المحبة والألفة، وليس الكراهية أو النفور فهذه دعامة متينة لإقامة صرح الفرد والجماعة والناس.

وتبدأ هذه المحبة والمودة فى العلاقة مع الله الخالق: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥].

وفى تربية أصحاب الرسالات والهداة: كما فى وصف الله تعالى فى نعمته على موسى عليه السلام: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ٣٩].

وليست هذه المحبة قاصرة على هذه الدائرة، إذ إن الأسرة المسلمة تتأسس على المودة والتماسك: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١].

والمحبة أساس في بناء مجتمع الإيمان، بقول الرسول ﷺ: «لاَيُؤْمِنْ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١).

وهو تكليف حرى بكل مسلم وكل فرد أن يتخلق به وأن يترسم خطاه، لذلك كانت قطيعة الرحم من أشد المنكر، وفيها تحذير قاطع: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [سورة محمد: الآيات ٢٢-٢٣]. وإنسان الإسلام عضو فى الجماعة العامة، وهو لبنة طيبة وصرح نافع فى الأمة التى ينتمى إليها، والأسرة الدولية التى يتعامل معها فى أرجاء العالم من حوله، فهو مدعو إلى البر بالمخالفين له الذين لا يناصبونه العداء ولا يضمرون له الكيد: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ٨]. وهو مأمور بإشاعة الأمن والانضواء فى مسيرة السلم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٨]. والأمان هو مقتضى الإيمان: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ [سورة قريش: الآيتان ٣ – ٤]. وبه تتحقق العمران وخلافة الإنسان لله.

(١) رواه البخارى ومسلم.

ثم إن المسلم مباح له أن يصاهر غير المسلم ويتزوج غير المسلمة ويحسن إليها، ولا يضيق عليها فى دينها، وإنما يتواصل معها ليكون أولاده نتاج هذا التزاوج الإنسانى، ويتكامل كل منهما مع الآخر.

ثم إن هذا الإنسان ينتصر للخير، ويحارب الشر، ويجاهد فى الحياة، وينشد مجتمع الرحمة والفضيلة، وهو جلد وصبور على مشاكل الحياة، مستعد لمواجهة صعابها لا ينعزل عنها ولا يهرب منها ومسلكه فى ذلك، كما فى الحديث:

«المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس، ولا يصبر على آذاهم»[1]. الأمر الذى يجعل المسلم إيجابيا فى مجتمعه يتحلى بالجلد والصبر وصولا إلى رقى هذا الجتمع وتقدمه، وبلوغه إلى الرفعة فى الدين والدنيا.

١٢-الاجتماع البشرى أساسه الأخوة الإيمانية والإرث المشترك للإنسانية

الاجتماع الذى ينشده الإسلام، هو اجتماع إنسانى مؤسس على الإخوة، أخوة الإيمان، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٠]. وأخوة الإنسانية هى أخوة أساسية أخرى تعبر عن القاسم المشترك بين المسلم وغير المسلم. فالإنسان كما يقول الإمام علىّ: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخلق. والمجتمع فى الإسلام هو مجتمع الرحمة رحمة الإنسان بالإنسان بصفته الإنسانية المجردة، بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧]. ومن تجليات الأخوة ما جاء فى حديث: «لا يدخل الجنة إلا رحيم، أما

(١) البخارى، صحيح البخارى، كتاب الأدب المفرد.

إنها ليســت برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[1]. فهى إذن رحمة تعم الناس جميعا وتظلهم ظلالها الوارفة، ولا تنحصر فى المسلم، فمن حصرها فى المسلم، فإن فهمه سقيم وعليل، لا يعبر عن صحيح الإسلام.

وآية ذلك أن، الخطاب للبشرية هو خطاب رئيسى فى صميم البنية الأساسية التى تستهدف إصلاح وصالح الفرد، وهدايته إلى طريق الحق، وإعمــار الكون، وتحقيق ســعادته فــى الحياة الآنيــة، والحياة الآجلة بمقتضى الخلافة المقررة لكل إنسان. وهذا ملحوظ فى العديد من النداءات القرآنية للناس، نسوق منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [سورة يونس: الآية ١٠٨].

ومن ثم فإن الإنســان هو البصير على نفســه، ويقرر أمره، وهو مدعو إلى سلوك طريق الهداية والرشاد، ونحسب أن لا أحد يختلف عليه.

* * *

(١) رواه البيهقى.